الحرب الرابعة :

الحرب ليست مشادة كلامية ، يمكن أن تبدأ وتنتهي بارادة المتخاصمين .

والمجتمع البشري يعرف أشكالا عديدة من الصدام والتناحر التي تعبر عن تضارب المصالح التي تحكمه ولكن الحرب هي بلا شك أرقى أشكال هذا الصدام وأكثرها تأثيرا في كافة النواحي الاجتماعية .

والحرب القومية ثورة ان اشتعل اوارها ثم توقف ، فان ذلك لا ينفي عنها انها جولة من جولات هذه الثورة حتى وان كانت نظامية .

بل أن الحرب القومية تحقق ما لا تحققه عادة الثورات التي تستهدف قلب سلطة أو اقامة اخرى ، ذلك انها في الوقت نفسه تعد ارقى أشكال الثورات الثقافية ، لما تحدثه من تغيير فكري ونفسي واجتماعي في صفوف الجماهير .

والحرب الرابعة ليست معزولة عن الحروب التي سبقتها ، ولا الظروف التي اشتعلت فيها وهي، وان توقفت بعد عشرين يوما، فقد حققت، او بالدقة انضجت ظروفا جديدة للنضال القومي هي أرقى من المرحلة التي سبقت هذه الحرب .

كانت الحرب مفاجأة للجماهير ، وللقوى السياسية المنظمة أيضا . ولم يكن ذلك بسبب السرية وحدها ، فحتى الذين بلغتهم انباء الاستعداد لم يصدقوا .

وحين اشتعلت بالفعل ، راجت التفسيرات ، وما تزال ..

وقد يختلف المؤرخون في المستقبل حول الدوافع التي حدت بالنظامين المصري والسوري لدخول هذه الجولة من الحرب القومية ، وفي هذا الوقت بالذات .. الا انهم على أي حال سيجمعون على ان المفاجأة شملت جميع الناس على اختلاف اوضاعهم الاجتماعية ، وجميع القوى السياسية على اختلاف مواقعها السياسية .

كانت المفاجأة ظاهرة عامة .. ويمكن لذلك البحث عن اسبابها بموضوعية ، فكون « النظم » لم تحارب من قبل (منذ وقف النار بعد القبول بمشروع روجرز في اب/ اغسطس ١٩٧٠) فذلك معناه انها لم تكن قادرة على القتال(١١). وكونها حاربت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ فذلك معناه انها أما أصبحت قادرة على القتال أو أنها لم تعد قادرة على استمرار حالة عدم القتال . الاحتمال الاول ثبت انه غير صحيح اذن هو الاحتمال الثاني .. وهو أن هذه النظم لم تعد قادرة على استمرار حالة عدم القتال ، لماذا ؟.. لان الجماهير العربية ظلت منذ هزيمة ١٩٦٧ وحتى الان (بعد وقف النار في الحرب الاخيرة) ظلت تطالب بالحرب وتقيم حكامها بمقياس الحرب .

فاذا كانت الجماهير هي السبب الرئيسي ، والمحرك الاساسي لهذه الحرب ، فلماذا اذن فوجئت ؟ .

الاجابة محددة وبسيطة : لان الجماهير ترى بحسها وبوعيها الذي تزايد خلال سنين النضال الاخيرة ، ان الحرب ضد العدو الصهيوني تتطلب تعبئة جهود الجماهير العربية وتوحيدها (وهو ما يعني في المعادلة السياسية اضعاف قوى اليمين الاجتماعي ومزيد من الصدام مع القوى الاستعمارية) وهو ما لم يكن يحظى بأي جهد ، بل بالعكس .

وبرغم ان موقف الجماهير كان صحيحا ، الا انها لم تتخلف ولا لحظة واحدة عن المساهمة المباشرة في الحرب والمجهود الحربي ، وحتى بالانضباط الذي أذهل الجميع. لقد اندفعت الجماهير تحقق أمنيتها في الحرب من خلال كل ثغرة ممكنة تركت لها أو فتحتها لنفسها . واستعصت جماهيرنا رغم عفويتها — على مؤامرات الحرب النفسية